اتجاهات الدرس اللسانيّ

أولا: الاتجاه المقارن التاريخيّ

ثمة اختلاف بين الدارسين بشأن تسمية الآراء والتصورات اللغوية التي هيمنت على البحث اللغوي في بداية القرن التاسع عشر، فهناك من يطلق على هذه المرحلة مصطلح اللسانيات المقارنة أو النحو المقارن، ومنهم من يقسم هذه المرحلة على حقبتين هما: حقبة النحو المقارن وحقبة النحو التاريخي. غير أن ما يوحد المنهجين المقارن والتاريخي هو رغبتهما الشديدة في تحقيق هدق واحد إلا وهو إعادة البناء الداخلي للغات، بغية الوصول الى اللغة الأم، على أسس تاريخية ومقارنة، وهي لغة افتراضية لاوجود لها إلا في وثائق مكتوبة، ((ولا تخرج عن كونها افتراضا قابلا للتعديل في أي وقت طبقا لما تؤدي اليه بحوث المستقبل)) [1]**. ويعد الباحثون اكتشاف اللغة السنسكريتية أهم حدث لغوي عرفه القرن الثامن عشر، وهو اكتشاف كشف العلاقة الوطيدة بين هذه اللغة واللغات الإغريقية واللاتينية. وكان هذا الاكتشاف منعطفا مهما أسهم في تجديد الدراسة اللغوية وبعث الروح فيها، وكانت سببا في بروز منهجهم. المقارن، الذي تقتصر وظيفته على بحث الظاهرة اللغوية في عدد من اللغات التي تنتمي إلى أصل واحد، كاللغات السامية والحامية والهندو أوروبية، ويهدف هذا المنهج الى ((التأصيل التاريخي، كأنيستدل على قدم الظاهرة بالتماسها في أخواتها، أو حداثتها بتفرد اللغة المعينة بها من بين أخواتها ، بحسب تاريخ حياة تلك اللغة))**[2]**. ويعد الدارسون هذا المنهج أقدم المناهج اللغوية الحديثة، وهو يتناول بالدراسة المقارنة عدة لغات تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة، معتمدًا في ذلك على تصنيف اللغات واللهجات المختلفة إلى أسر لغوية، على أنّ القرابة بين هذه اللغات لم تكن معروفة بنحو دقيق قبل اكتشاف اللغة السنسكريتية، التي قورنت باليونانية واللاتينية، فاتضح بعد المقارنة وجود صلة قرابة بين هذه اللغات، التي رأى الباحثون اللغويون أنّها انحدرت من أصل واحد، وذلك بفضل ما انتبهوا عليه من لقد كان العام ١٩١٦ علامة فارقة في تاريخ الدرس اللساني العالمي، وتاريخا لبروز مصطلح linguistics الذي قوبل في الثقافية العربية بصيغ مختلفة وترجمات وصلت الى٢٥ ترجمة أشهرها اللسانيات، والألسنية ، وعلم اللغة، وعلم اللسان وغيرها ، على نحو ما نص عليه الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه (قاموس اللسانيات)، وشاع مصطلح اللسانيات في بلدان المغرب، وارتبط مصطلح الألسنية**

---

(١) المدخل الى علم اللغة ٢٠٠-٢٠١، وينظر: مناهج البحث اللغوي ١٦٧.

(٢) المستشرقون والمناهج اللغوية ٤١، وينظر : اللسانيات العامة ١٤٢ ، ومناهج البحث اللغوي١٦٧ .

في بلاد الشام، في حين كان مصطلح علم اللغة سائدا فيمصر والعراق، غير أن المؤتمر الدولي للسانيات الذي أقامته الجامعة التونسية، والذي حضره عدد كبير من اللغويين العرب تبني مصطلح اللسانيات مقابلا عربيا للمصطلح الانكليزي linguistics. لقد اشتمل نص المحاضرات على مفاهيم لسانية ميمة، كانت بمنزلة المرتكزات التي أقام عليها «وسير» نظريته، وكان مفهوم النسق أو النظام واحدا من المفاهيم اللسانية المية التي عرض لها دي سوسير، فهو يُقرّر ابتداء أنّ اللغة نظام، وهذا النظام مبني في أساسه على الاختلاف، ومن هنا برز مفهوم القيمة، الذي شكَّل ملمحا بارزا في اللسانيات السويسرية، و قبل محاولتنا بيان مفهوم القيمة عند دي سوسير يجدر بنا أن نشير إلى أن اللغويين في القرن التاسع عشر، ولا سيما مدرسة النحاة الجدد قالوا إنّ الدراسة العلمية في الدراسة التاريخية، وإنّ توجيه البحث اللغوي نحو البعد التاريخي يكسب الدراسات اللغوية سمة العلمية [٣]، وفي هذا المعنى يقول اللغوي الدنماركي أوتوجسبرسن: ((إنّ الصفة المميزة لعلم اللغة seien languge كما يُفهم الآن هي السمة التاريخية)) [٤]. وتنظر الدراسات التاريخية إلى العناصر اللغوية عبر مراحل زمنية مختلفة، رغبة منها في الوقوف على التغيّرات والتيلات التي تطرأ عليها، وهذا يعني أن معالجتها للظاهرة اللغوية كانت تجري بصورة منعزلة عن بعضها [٥]، أي إنَّها ليست معالجة نسقية. من هنا ندرك الأهمية المعرفية لمفهوم القيمة الذي صاغه دي سوسير، والذي أكَّد بموجبه أهمية العلاقات بين الوحدات اللسانية، التي تتضح في إطار النسق العام، وأنَّ العنصر اللغوي لا قيمة له إذا كان معزولاً عن العناصر اللغوية الأخرى، وهو مفهوم نقله دي سوسير من العلوم ولا يتجلى مفهوم القيمة عند دي سوسير إلا في إطار النسق، بوصفه ((مجموعة من العناصر المترابطة التي تشكل كلاً واحدًا)) [٦]. والنسق في النظرية السوسيرية معادل للغة؛ لذا نجد دي سوسير يؤكد دائما أنّ اللغةً نسق من الاشارات التي لا تعترف إلا بنظامها الخاص ، [٧]ويتطلّب

ويتطلب النسق - كما نعلم - وجود عناصر ترتبط فيما بينها بنوع معين من العلاقات. ويُعطي دي سوسير الأولوية في البحث للنسق وصولاً إلى العناصر الأخرى، ولا يعطيها إلى العناصر وصولاً إلى النسق، إذ ((لا شيء يتميّز قبل

---

(٣) ينظر : المنوال النحوي ٧٥، ومدخل الى اللسانيات ٤٣.

(٤) مدخل الى اللسانيات ٤٣.

(٥) ينظر : المنوال النحوي ٧٥.

(٦) اللسانيات والدلالة ١٥٩، وينظر: علم اللغة العام ٤١

(٧) ينظر: علم اللغة العام ٤١.

البنية اللغوية)) [٨] ، ولا شك في أنَّ مثل هذا التأسيس ((هو الذي يُخرج الدلالة من أفق التعامل مع اللغة بوصفها كلمات، كل كلمة معزولة بذاتها إلى أفق التعامل مع اللغة بوصفها نسقا به تترتب الكلمات لتقول ممكنها الدلالي، وفق تركيبها الخاص، صوتاً في كلمة، وكلماتٍ في جمل، وجملاً في نصٍّ)) [٩]. فلا يجوز – بحسب سوسير - أن يبدأ المرء بالعناصر اللغوية، ويبني منها النظام من طريق الجمع بين هذه العناصر، بل ((ينبغي للمرء أن يبدأ من الكل المترابط الأجزاء، ويتوصل الى عناصره عن طريق التحلي التحليل)) [١٠] ، وتأسيسا على رأي دي سوسير هذا (لم تعد النظرة العلمية إلى الأشياء نظرة جزئية تصل إلى معرفة الكل من خلال الجزء وخصائصه، فلا الجزء أو نفسه مع الكل، ولا الكل هو مجرد مجموع أجزائه فقط، بل الأهم هو (العلاقة التي تسود بين الأجزاء، وتحدّد النظام الذي تتبعه الأجزاء في ترابطها، والقوانين التي تنجم عن هذه العلاقة، وتسهم في بنيتها في الوقت نفسه)) [١١] .ولمّا كان النسق نظاما محايثاً للعناصر التي تؤلّفه يتبيّن لنا أنّ أي خلل يصيب أحدهما النسق العناصر سيصيب - لا محالة الآخر ، وللتدليل على هذا الأمر يسوق دي سوسير مثالاً عن لعبة الشطرنج، فقيمة كل قطعة تعتمد على القطع الأخرى إلى حدّ ما، كما أنّ تحريك قطعة واحدة لا يغيّر مصيرها وحدها حسب ((بل يعيد تقويم شبكة العلاقات بين القطع بأكملها، وهذا التشبيه ينطبق على اللغة إلى حدّ كبير)) [١٢]. سبق أن بينا أنّ النظرية السوسيرية تقوم على جملة من الثنائيات، التي رسمت ملامح الدرس اللسان، ويمكن اجمال تلكم الثنائيات في الآتي:

---

(٨) دليل الناقد الأدبي ٦٩، وينظر: السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والأبعاد ٣٦.

(٩) اللسانيات والدلالة ١٠٢.

(١٠) علم اللغة العام ١٣٣، وينظر: اتجاهات البحث اللساني ١٩٤.

(١١) دليل الناقد الأدبي ٦٨.

(١٢) مدارس اللسانيات ٢٩، وينظر: علم اللغة (السعران) ٣٠٣، واللغة والخطاب ٤٣.